الفصل الرابع

استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض

استعارة أسماء بعض الأعمال مكان بعض

رأينا – فيما مضى من هذا البحث – أن من غناء اللغة العربية، ورحابة تعبيراتها واتساع دائرتها تسمية العضو الواحد بأسماء متعددة على حسب أجناس الحيوانات، فالعضو الذى تطأ به الحيوانات الأرض يسمى فى البعير خفا، وفى البقر والغنم والظباء ظلفا، وغير ذلك كما سلف ذكره، وأضيف هنا أن من مظاهر تلك الرحابة، والسعة تسمية العمل الواحد بأسماء مختلفة تبعا لاختلاف أنواع المخلوقات، فاتصال الذكر بالأنثى إن كان فى الإنسان له أسماء معروفه منها النكاح[1]، أو كنايات معلومة منها كما جاء فى القرآن الكريم المسّ كما فى قوله تعالى: ﴿ **لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ...** ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، أو الملامسة كما فى قوله تعالى: ﴿ **أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ [النساء: ٤٣ والمائدة: ٦]، وإن كان فى الطيور، أو الغنم سمى رصعا[2]، واتصال الحمار بالأتان يسمى (بوكا)[3] وغير ذلك.

فإذا نقل اسم هذا العمل، أو الفعل من نوعه المعروف به إلى نوع آخر، فإن ذلك النقل يكون استعارة لفظية غير مفيدة، إن وضع لفظ مكان آخر فقط، أو استعارة مفيدة إن روعى فيها شبه بين المستعار منه، والمستعار له، قياسا على ما أسلفت ذكره من استعارات، – فمثلا –قد يستعار رصع الطائر أنثاه للإنسان جاء فى لسان العرب:

«ورصع الطائر الأنثى يرصعها رصعا سفدها، وكذلك الكبش، واستعارته الخنساء فى الإنسان، فقالت حين أراد أخوها معاوية أن يزوجها «دريد بن الصمة»:

معاذ الله يرصعنى حبركى قصير الشبر من جشم بن بكر

وقد تراصعت الطير والغنم والعصافير»[4].

---

(١) ينظر لسان العرب: ٦/٤٥٣٧ (نكح).
(٢) ينظر لسان العرب: ٤/١٦٥٦ (رصع).
(٣) نفسه: ١/ ٣٨٩ (بوك).
(٤) نفسه: ٣/١٦٥٦ (رصع).

والحبركى كما فى لسان العرب الطويل الظهر، القصير الرجلين، أو الضعيف الرجلين الذى يكاد يكون مقعدا[١].

ويبدو أن استعارة «الرصع» للإنسان فى بيت الخنساء من قبيل الاستعارة المفيدة؛ لأنها تذم «دريدا» ولا ترضاه بعلاً لها؛ لأنه شيخ كبير، ضعيف البنية، سقيم الجسم، تكاد رجلاه لا تستطيعان حمله، فما أحراه بأن يلحق بالطير والعصافير فى ضعفهما، وخراعة جسمهما.

وكان «دريد» وهو فارس «جشم» قد فتن بها، وأراد خطبتها، فتقدم لأبيها، فرحب به، وذهب أبوها إليها ليأخذ رأيها، فرفضت الزواج منه، وأقامت رأيها على أنها شابة فى مقتبل العمر، وهو شيخ أضنته السنون، وقد غضب «دريد» لرفضها وهجاها بشعر منه:

وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالى ونفسى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلى إذا ما ليلة طرقت بنحس[٢]

ومن هذا النوع أيضًا استعارة اسم اتصال الحمار بأنثاه، وبوكه إياها لهذا الفعل من الإنسان جاء فى لسان العرب:

«والبوك سفاد الحمار، وباك الحمار الأتان يبوكها بوكا، كامها، ونزا عليها، وقد يستعمل فى المرأة قال ابن برى وقد يستعار للآدمى، وأنشد أبو عمرو:

فباكها موثق النياط ليس كبوك بعلها الواطواط[٣]

وفى الحديث[٤] أنه رفع لعمر بن عبدالعزيز أن رجلا قال لآخر، وذكر امرأة أجنبية إنك تبوكها، فجلده عمر، وجعله قذفا، وأصل البوك فى ضراب البهائم، وخاصة الحمير[٥]...».

---

(١) نفسه: ٢/ ٧٥٢ (حبرك).

(٢) ينظر الخنساء شاعرة بنى سليم، للدكتور محمد جابر عبد العال: ٥٩ وما بعدها، سلسلة أعلام العرب إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣م.

(٣) موثق: محكم النياط: عرق يتعلق به القلب الواطواط: الضعيف الجبان تشبيها بطائر الخفاش ينظر لسان العرب (وثق) (نيط) (وطط).

(٤) يبدو أنه يقصد من الحديث معناه اللغوى. (٥) لسان العرب: ١/ ٣٨٩ (بوك).

ويبدو أن تلك الاستعارة ليست مجرد وضع لفظ مكان لفظ حتى تكون استعارة لفظية غير مفيدة، وإنما هى مفيدة، قوامها التشبيه، وكلمات البيت ناطقة بذلك، فالرجل الذى استعير له الفعل (فباكها) موثق النياط، ذو قلب شديد، ولعله - والله أعلم - كان بعلا ثانيا تزوجها بعد الأول، الذى كان ضعيفا، وطواطا، خائر الجسم جبانا رعديدا.

وهنا يبرز تساؤل مؤداه إذا كان الفعل (فباكها فى صدر الشطر الأول من البيت مستعارا كما ذكر، فإن (كبوك) استعمل مع الزوج الأول الذى وصف بأنه وطواط، فكيف يطلق البوك على الفعل الضعيف أيضا؟ والخطب فى ذلك هين، فإن (كبوك) فى الشطر الثانى يمكن أن يكون من قبيل المشاكلة للفعل (فباكها) فى الشطر الأول، وتبقى تلك الاستعارة مفيدة، لا غبار عليها.

وقد لحظت أن لسان العرب بين «الرصع» و«البوك» فى الاستعارتين السابقتين بالسفاد، فقال فى الأول «ورصع الطائر أنثاه يرصعها رصعا سفدها» وقال فى الثانية «البوك سفاد الحمار» يضاف إلى ذلك أن البلاغيين يمثلون لوجه الشبه المتعدد العقلى بحدة النظر، وكمال الحذر، وإخفاء السفاد فى تشبيه طائر بالغراب[1] أفيعنى هذا أنه يستعمل السفاد فى قرب الذكر من الأنثى فى جميع المخلوقات أو أنه خاص ببعضها دون بعض؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، قد تتبعت هذه المادة فى لسان العرب فوجدته يقول فى مطلعها: «السفاد نزو الذكر على الأنثى»[2].

ثم نقل عن بعض اللغويين أنه يستعمل فى بعض أنواع المخلوقات دون بعض فقال: «... الأصمعى يقال للسباع كلها سفد، وسفد أنثاه، وللتيس، والثور، والبعير، والطير مثله»[3].

فعلى ما قاله الأصمعى يكون السفاد خاصا ببعض المخلوقات دون بعض، وقد وجدت الزمخشرى يذكر أنه يستعمل فى الطير دون التعرض للأنواع الأخرى، ويظهر من صنيعهما أن السفاد يستعمل على وجه الحقيقة فى بعض المخلوقات دون بعض،

---

(١) ينظر المنهاج الواضح للأستاذ حامد عونى: ٤٧، وبغية الإيضاح: ٣ / ٣٥.

(٢) لسان العرب: ٣ / ٢٠٢٣ (سفد). (٣) المصدر نفسه والموضع.

ومفهوم هذا أنه إذا استعمل فى غير الأنواع المنصوص عليها يكون استعارة، ولكن ابن منظور والزمخشرى لم يذكرا أن السفاد استعير لشيء من الأحياء، لكن صاحب لسان العرب ذكر أن بعض الشعراء استعار «السفاد» للزند فقال:

«واستعاره - أى السفاد -أمية بن أبى الصلت للزند فقال:

والأرض صَيَّرها الإلهُ طروقةً للماء حتى كل زند مُسفِدُ[1]

فالاستعارة فى البيت بين حيوان، وخشب، أو نحوه، والمستعار منه قرب ذكران بعض الحيوانات لإناثها، والمستعار له دخول خشبة الزند العليا فى السفلى، لأن «الزند، والزندة خشبتان يستقدح بهما، فالسفلى زندة، والأعلى زند... والزندة العود الأسفل الذى فيه الفرضة[2] وهى الأنثى»[3].

وهذه الاستعارة تبدو مفيدة، لملاحظة التشبيه فيها، وفيها جدة وطرافة، لأنها أحيت الجماد، وحركت الساكن، فهى خاصية غريبة، لا يتأتى مثلها إلا للشعراء الأفذاذ الذين أوتوا حظا وافرا من فن القول، وصياغة البيان؛ لأن الشاعر استطاع بحذق ومهارة أن يجمع بين المتباعدين، ويقرن بين الضدين، فالمستعار منه لا يخطر بالبال عند ذكر المستعار له، فأحدهما من وادى الحيوانات، والآخر من وادى الخشب، وشتان ما بينهما، وما أشبه هذه الاستعارة بتلك التى جاءت فى قول الشاعر:

وإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر[4]

ومن قبيل استعارة «الرصع» و«البوك» من الحيوان أو الطير للإنسان استعارة العسب وهو ضراب الفحل للإنسان جاء فى لسان العرب العسب طرق الفحل أى ضرابه يقال عسب الفحل الناقة يعسبها ويقال إنه لشديد العسب وقد يستعار للناس قال زهير فى عبد له يدعى يسارا أسره قوم فهجاهم:

---

(١) لسان العرب: ٣/٢٠٢٣ (سفد).

(٢) الفرضة: الفرجة أو الثلمة فى الشيء، ولهذا يسمى الأعلى (أبا) والأسفل (أما) يقول ذو الرمة:

وسقط كعين الديك عاورت صاحبى أباها وهيأنا لموقعها وكرا

(٣) لسان العرب: ٢/١٨٧١ (زند).

(٤) ينظر بغية الإيضاح: ٣/١٢٩.

ولـــولا عسبـــه لـــرددتموه وشر منيحه أيـــر معـــار[1]

قوله (عسب الفحل الناقة) يدل على أن المقصود من الفحل ذكر الإبل، وقد استعار (زهير) عسبه للإنسان- أى عبده - يقول لهؤلاء الذين أسروا عبده لولا قوة عسبه، وشدة ضرابه، لأطلقتم سراحه، وفككتم أسره، ويقصد رميهم، أو رمى نسائهم به، وهو هجاء مقذع، ما كان ينبغى أن يتورط فى مثله (زهير) الشاعر المتزن الرزين الذى مدحه بعد ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأثنى على شعره، ولكنها الجاهلية تأبى إلا أن تظهر فى بعض شعره مثل قوله:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

فإنه يدعو إلى الظلم ابتداء حتى يخشى الناس هذا الظالم فلا يظلمونه، وهو منطق عدوانى بغيض جدير بالمقت والازدراء.

وعلى كل فإن استعارة «العسب» للإنسان استعارة مفيدة؛ لأنها عقدت شبها بين المستعار منه، وهو فحل الإبل، والمستعار له، وهو فرد من الناس، فكأنها أعطت هذا الإنسان قوة فحل الإبل، وشدته.

* * *

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٩٣٥ (عسب).

(٢) ينظر معلقة زهير فى شرح المعلقات السبع، للزوزنى: ١٠٤ والرواية المشهورة للبيت (يظلم) بدل (يهدم).